قراءة في تفسير ابن كثير

سورة الحشر

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. نبدأ مستعينين بالله في دراسة سورة الحشر، وهي السورة التالية لسورة المجادلة، وبينها وبين سورة المجادلة ارتباط، وهذا الارتباط يظهر أيضًا مع سورة الحديد.

ونعود إلى سورة الحديد مؤكدين أنه -سبحانه وتعالى- قد أخبر خبرًا عظيمًا عن نفسه، أخبر أنه (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)، وسيظهر في سورة الحشر من آثار اسمه الظاهر الشيء الكثير، وأيضًا من آثار اسمه الباطن، فهو -سبحانه وتعالى- الظاهر الذي أظهر شأن دينه، وشأن رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وأظهر شأن المؤمنين، وأظهر -عزَّ وجلَّ- فساد فكر وحياة الكافرين، وأظهر ضعفهم وأظهر هزيمتهم، فهو الظاهر -سبحانه وتعالى- على جميع خلقه.

وقد تصورنا هذا المعنى في آخر سورة المجادلة؛ لأننا سمعنا "أن الله كتب"، وهذا إشارة إلى سنته القدرية، كتب

الغلبة له ولرسله، وأخبر عن نفسه أنه (الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ). وهذه الغلبة، وهذه الأسماء (الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) واضحة غاية الوضوح في سورة الحشر، فبذلك يكون ارتباط سورة الحديد وسورة المجادلة بسورة الحشر غاية في الوضوح، فالله من أسمائه الظاهر، وهو الذي كتب أنه سيغلب هو ورسله وأخبر أنه (الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)، فكل من حاد الله، وحاد رسوله إنما جنى على نفسه وسيظهر هذا بوضوح في سورة الحشر.

سنبدأ في قراءة الآية الأولى في السورة وسنقف أمام مبدأها في الخبر عن التسبيح، وقفة، نخرج منها بعقيدة واضحة، لا نقاش فيها ولا مراء:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

هذا الخبر العظيم الذي بدأت به السورة؛ وهو موضوع التسبيح، خبر يجب أن يكون ظاهرًا في عقيدتنا، دالًا على كمال ربنا -سبحانه وتعالى- وعلى وظيفتنا، أمر التسبيح أمر له علاقة بوظيفة الإنسان في الدنيا. فنبدأ أولًا بمعنى التسبيح، "التسبيح" في أصله من مادة: سَبَحَ، فالسباحة والتسبيح مشتركان في أصل المادة، والسباحة في الماء ينجو بها صاحبها من الغرق، وكذلك المسبح لله والمنزه له ينجو من

الشرك، ويحيا بذكر الله وتمجيده -سبحانه وتعالى-، يحيا بالتمجيد والتنزيه لله تعالى. وهي بالمعنى الشرعي بمعنى: التنزيه، وقد جاء الفعل هنا بصيغة الماضي (سَبَّحَ لِلَّهِ) كما جاء في أول سورة الحديد، وهذا من العلاقة بين سورة الحشر وسورة الحديد، أنها ابتدأت بفعل: سبح، و(سَبَّحَ لِلَّهِ) هذا بصيغة الماضي.

هنا سنعود قليلًا إلى سورة الحديد ونرى سورة الواقعة التي تسبقها، سنجد -كما ذكر أهل العلم- أنه لما أمر الله تعالى الخلق بالتسبيح في آخر سورة الواقعة، (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) جاء في أول السورة التي تليها مباشرة التسبيح بالفعل الماضي (سَبَّحَ لِلَّهِ) ليدل على أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزم به كل (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) من الذي بقي؟ بقي الإنسان أن يقوم بهذه الوظيفة. فكأن مبدأ الكلام عن التسبيح في هذا الجزء من كتاب الله ابتدأ بآخر سورة الواقعة.

نعود إلى الكلام حول التسبيح عمومًا فنقول إن فعل التسبيح قد جاء أيضًا بصيغة المضارع، كما سيأتي في آخر هذه السورة التي نحن بصدد دراستها، كما في سورة الحشر سيأتي في آخرها (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وأيضًا سيأتينا بصيغة المضارع في سورة الجمعة (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ).

وفي أول سورة التغابن (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وهذه الصيغة تدل على الدوام والاستمرار للتسبيح. فصيغة الماضي تدل على أن التسبيح قد وقع والتزم به أهل السماوات والأرض، وصيغة المضارع تدل على الدوام والاستمرار. وقد جاء بصيغة الأمر أيضًا (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وكما في الواقعة (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ).

فجاء في الماضي والمضارع والأمر، وجاءت نفس مادة التسبيح بالمصدر (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا) في آية الإسراء، وفي آية الروم (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ).

كل هذه الصيغ تدل على دوام الاستمرار والتسبيح لله -تعالى- من جميع خلقه كما سبّح -سبحانه- نفسه، وسبحته ملائكته ورسله، وهذا سيكون واضحًا.

ونلاحظ مثل في الحشر وأيضًا في الحديد (سَبَّحَ لِلَّهِ) من؟ (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وهذه من صيغ العموم،

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) تخبر عن كل أحد عاقلًا كان أو غير عاقل؛ لأن استعمال "ما"، لغير العقلاء ومما يلفت النظر أن التسبيح الذي يأتي في معرض العموم في القرآن يأتي مسندًا إلى "ما" دون "من" (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، موضع واحد في سورة الإسراء في "من" (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) أما بقية المواطن التي فيها العموم كلها أتى "ما"، فرب العالمين جعل التسبيح من فعل السماوات السبع والأرض (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)، هذه السماوات والأرض ليست من العقلاء الذين يقصدونهم، العقلاء الذين يقصدونهم هم بني آدم، لكن أشير هنا إلى أن السماوات تسبح، وأن الأرض تسبح. ماذا يسبح في السماوات والأرض؟ السماوات نفسها وما يلحقها من أفلاك وكواكب وبروج، والأرض نفسها وما يلحقها من جبال وفجاج ووهاد، (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

آية سورة الإسراء (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) هذه واضح فيها أن السماوات وما فيها من أفلاك وكواكب وبروج تسبح، والأرض تسبح وأيضًا (وَمَن فِيهِنَّ) يعني خلق موجودين، البشر، بني آدم.

في سورة الإسراء نفهم من المسبح؟ الذي يسبح هو ما في السماوات وما في الأرض وأيضًا من في السماوات. فالتسبيح لكل الموجودات، كلها فعلها التسبيح؛ لذلك أيضًا في الإسراء (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) ونلاحظ كلمة شيء، هذه أعم العموميات، مثلما تسمع قوله تعالى (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) ومثله (وَإِن مِّن شَيْءٍ) ماذا يفعل؟ (إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)، بهذا نعتقد أن التسبيح شمل السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن والطير والحيوانات والشجر والحجر والمدر والمخلوقات لله -عزَّ وجلَّ- كلهم يسبحون.

وقد جاء في القرآن والسنة إثبات التسبيح من كل هذه المذكورات، كل على حدة. والآن سنحاول أن نتابع سويًا هذا الأمر، مرة أخرى لأننا سنبدأ في قراءة المواطن التي ورد فيها التسبيح والمقصد من ذلك أنه يجب أن تكون عندي عقيدة سليمة تجاه هذا المعنى.

رب العالمين قد أخبر في كتابه أن ما من شيء إلا ويسبح بحمده -سبحانه وتعالى- وهذه إشارة للعموم، فمعناه أن عقيدتنا في التسبيح أنه شامل للسماوات والأرض والملائكة والإنس والجن، كل هؤلاء، ولكل أحد من هؤلاء المذكور أنهم يسبحون أتت آية تدل على ذلك.

نركز لأننا سنتنقل بين الآيات نشير إلى أن التسبيح شأن عظيم وأن كل المخلوقات تسبح، بل سيتبين لنا أن الله -سبحانه وتعالى- يخبرنا عن تسبيحه لنفسه. سنبدأ أولًا بآية سورة الإسراء والتي فيها تسبيح الله تعالى نفسه، سنرى هذا في الإسراء والروم والأنبياء، نبدأ بالإسراء الآية الأولى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

المعنى هنا أن الله ينزه نفسه -سبحانه وتعالى- ويعظمها ويبين أن له الأفعال العظيمة.

نذهب لآية الروم (17) و(18) التي تشير إلى نفس المعنى؛ تسبيح الله نفسه:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

الدلالة واضحة؛ أن الله ينزه نفسه ويعظمها.

عنوان هذا الكلام أنه جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة إثبات التسبيح من كل أحد حتى أن الله يسبح نفسه، فكان شاهدنا أولًا آية الإسراء وآية الروم وآية الأنبياء، الآن

ننتقل لتسبيح الملائكة، وفي قصة آدم الأمر واضح في قولهم (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) لكن لنرى آية الأنبياء (20) التي تدل على حالهم الدائم:

(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)

هذا دليل واضح على أن من وظيفة الملائكة -التي هي عند الله- أنهم يسبحون الليل والنهار، ونفى عنهم أنهم يحصل عندهم فتور، هذا دلالة على شأنهم الدائم الذي لا يتوقف.

فعلمنا أن الله سبح نفسه؛ كما في آية سورة الإسراء، وعلمنا أن الملائكة تسبح أيضًا؛ كما في آية سورة البقرة في قصة آدم وكما في سورة الأنبياء الآية التي سمعناها، أيضا الرعد يسبح بحمد الله كما في سورة الرعد الآية الثالثة عشر:

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

الآية غاية في الوضوح في دلالتها، أن الرعد يسبح بحمد الله، يمكن أن تقرأ في التفسير أن سامعوه من العباد يسبحون، لكن دلالة الآية واضحة في كون أن الرعد نفسه هو الذي

يقوم بهذا الفعل، وعطف عليه الملائكة وهذا من خوفهم من الله، فتسبيح الرعد ثابت، كما في الآية. نعود إلى آية (44) في سورة الإسراء ونجد الخبر عن تسبيح السماوات السبع والأرض:

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

هذه الآية التي اعتمدنا عليها في مسألة فهم أن كل شيء يسبح بحمد الله، السماوات السبع والأرض، وأيضًا من في السماوات السبع ومن في الأرض، فالدلالة أن السماوات والأرض يسبحن، وسنستفيد من هذه الآية حين نتقدم في المفهوم أننا لا نفقه التسبيح وهذا شيء مهم في المعنى.

أيضًا في سورة ص الآية الثامنة عشر خبر مهم عن تسبيح الجبال:

(إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ)

هذا في سياق الكلام عن داوود -عليه السلام- وأن من شدة عبادته وإنابته أن سخر الله له الجبال تسبح معه بحمد ربها في أول النهار وفي آخره، وهذا واضح في أفعال الجبال

كونها تسبح، ومثل هذا المعنى أيضًا عند الطير في سورة الأنبياء الآية (79) هناك خبر عن تسبيح الطير:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)

سمعنا عن تسبيح الله لنفسه كما في سورة الإسراء، وعن تسبيح الملائكة كما في سورة البقرة والأنبياء، وعن تسبيح الرعد كما في سورة الرعد، وعن تسبيح السماوات والأرض كما في سورة الإسراء وغيرها، وعن تسبيح الجبال كما في سورة ص، وعن تسبيح الطير كما في سورة الأنبياء، وسمعنا أيضًا عن تسبيح الإنسان، مثلما أخبرنا رب العالمين عن داوود في سورة ص، وغيرها كثير مثل في مريم: (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) معنى ذلك أنه ممن يسبح ويأمرهم بالتسبيح.

فهذا إسناد بالتسبيح لكل هذه العوالم؛ الطير، الرعد، السماوات والأرض، واضح مفصل مبين. وهذا في عقيدتنا يشبه عقيدتنا في سجود كل شيء، كل شيء يسبح وكل شيء يسجد. يبقى هنا -ولذلك ناقشنا هذا الموضوع- أن بعض الخلق تدخلوا بعقولهم في معنى التسبيح وتحكموا في عمومه، نحن نقول: "كل شيء يسبح، والتسبيح محمول على حقيقته؛

يعني تنزيه الله وتحميده، يقولون: سبحان الله وبحمده." قال بعضهم: "التسبيح عند الإنسان والملائكة والجن يكون بالذكر فيسبحون ويحمدون الله ويمجدونه، لكن في الطير والحيوان والنبات والجماد يقولون إنه يكون بأن يشهد على نفسه؛ كأنه آية من آيات الله وهذا تسبيحه" والصحيح هو الذي يشهد له القرآن الكريم:

أولًا رب العالمين صرح لنا، كما في آية الإسراء: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) معنى هذا أنهم يسبحون تسبيحًا حقيقيًا لكن نحن لا نفقهه.

ثانيًا: أن الله قال في حق داوود: (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) وكما قرأنا في آية ص: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ) فلو كان التسبيح معه تسبيح دلالة، كما يقولون، لما كان لداوود خصوصية في أنهم يسمعون صوته ويسمع صوتهم!

ما المانع أن تكون تسبح؟ رب العالمين أخبر أن هذه العوالم كلها لها إدراك تام كإدراك الإنسان أو أشد منه. أخبر تعالى أن هذه المخلوقات لها إدراك، كيف لا نعتقد هذا الاعتقاد ونحن نعتقد أن الله عرض (الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)، الله أثبت

لهذه العوالم إدراكًا وإشفاقًا من تحمل الأمانة، (وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) رب العالمين أخبر عن الإنسان أنه ظالم وجاهل، هذا العرض ليس مجرد عرض تسخير. لما السماوات والأرض والجبال أبين، هذا الإباء لا تتصوره مجرد سلبية، بل عن إدراك تام.

(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) هم يطيعون الله، وهم يأبون أن يحملوا الأمانة إشفاقًا منها، ونحن نؤكد على هذا المعنى لأننا حين نأتي إلى آخر سورة الحشر ويأتي معنى (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ) سيتبين أن هذا الجبل عنده إدراك، مثلها (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) إلى أن أخبر -عزَّ وجلَّ- أن هذه الحجارة منها ما يهبط من خشية الله، أخبر عن حال للحجارة، معنى ذلك أن هذه الصخور عندها إدراك اشد من إدراك الإنسان. وفي الحديث "فإنَّهُ لا يسمَعُ مدى صوتِ المؤذِّنِ جنٌّ ولا إنسٌ، ولا شيءٌ، إلَّا شَهِدَ لَه يومَ القيامَةِ"[1] بم سيشهد إن لم يكن مدركًا الآذان والمؤذن.

في قصة الهدهد مع نبي الله سليمان قضايا عجيبة، ماذا أدرك الهدهد مع سليمان في القصة لما ذهب على مملكة سبأ

---

[1]() أخرجه النسائي (643).

قال لسليمان: (أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)، هذا إشارة إلى أن الهدهد أدرك عشر مسائل:

المسألة الأولى: إدراكه أنه أحاط بما لم يكن في علم سليمان.

المسألة الثانية: ميّز سبأ بعينها، عرف سبأ وجاء منها بنبأ يقين لا شك فيه.

المسألة الثالثة: أنه أدرك أن المرأة تتولاهم وأنكر ذلك أيضًا.

المسألة الرابعة: إدراكه ما أوتيت سبأ من متاع الدنيا (وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ).

المسألة الخامسة: أدرك أن (لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ).

المسألة السادسة: أدرك ما هم عليه من سجود للشمس من دون الله.

المسألة السابعة: أدرك أن هذا شرك.

المسألة الثامنة: أدرك أن هذا من تزيين الشيطان.

المسألة التاسعة: أدرك أن هذا ضلال عن الصراط المستقيم.

المسألة العاشرة: أدرك أنهم لا يهتدون.

فتصور إدراكه، وسليمان -عليه السلام- اقتنع بإدراك الهدهد لذلك (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) وسليمان -عليه السلام- سلمه الرسالة وبعثه سفيرًا إلى بلقيس وهي سفارة موفقة لأن نتيجتها أنهم أتوا مسلمين وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

ونفس الأمر تصوره مع النملة، أدركت مجيء الجيش وأنه لسليمان وجنوده وأدركت كثرتهم، وأن عليها وعلى النمل أن يتجنبوا الطريق وأن يدخلوا مساكنهم، هذا كله فيه إشارة واضحة إلى أن هناك إدراك عند المخلوقات، وأيضًا لو فكرنا في حديث النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، عن فضل يوم الجمعة، فقال -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "فيهِ خُلِقَ آدَمُ، وفِيهِ أُدْخِلَ الجنَّةَ"، وقال -صلَّى الله عليه وسلَّم-، في هذا الحديث: "وفيهِ تقومُ السَّاعةُ وما من دابَّةٍ إلَّا وَهيَ مُسيخةٌ يومَ الجمُعةِ مِن حينَ تُصبحُ حتَّى تطلعَ الشَّمسُ شفقًا منَ السَّاعةِ إلَّا الجنَّ والإنسَ"[2] فهذا تأكيد أن هذه المخلوقات تدرك، الحيوان يدرك ويشفق ويؤمن بالغيب والغيب هنا قيام الساعة والإشفاق منها أشد من إشفاق الإنسان.

---

[2]() أخرجه مسلم (854).

أيضًا لو تذكرنا قصة الجمل الذي ندّ على أهله وخضع للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، حتى قال الصديق -رضي الله عنه- "يا رسول الله كأنه علم أنك نبي" فقال رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "ما بين لابتيها [المدينة] أحد لا يعلم أني نبي الله إلا كفرة الجن والإنس".

هذا كله يثبت إدراك الحيوان بالمحسوس وبالغيب، إدراك لا يقل عن إدراك الإنسان. نقول هذا الأمر لكي نقول إن التسبيح من هذه المخلوقات تسبيح حقيقي، حتى الرعد يسبح بحمد الله، والله قرنه مع تسبيح الملائكة، فنحن متيقنون أن هذه المخلوقات تسبح لله التسبيح المعلوم.

أيضًا نتذكر مواقف مع النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، مع أصحابه وهم شاهدون، شهدوا منطق الجماد بالتسبيح، وسمعوا تحميد هذه الجمادات مثل تسبيح الحصى في كفه، وحنين الجذع للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، حتى سمعه كل من في المسجد، وما أخبر به النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-: "إنَّ بمَكَّةَ حجَرًا كانَ يسلِّمُ عليَّ ليالِيَ بُعثتُ، إنِّي لأعرِفُهُ الآنَ"[3] إلى آخر ما يدل على هذه العلاقة بيننا وبين هذه الجمادات.

---

[3]() أخرجه الترمذي (3624).

يكفينا أننا سمعنا في سورة الإسراء قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) كل شيء يسبح بحمد الله (لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الأمر سهل، نحن لا ندرك بالحس، التسبيح لا نفقهه.

لماذا نؤكد على هذا الكلام؟ لأنه قد دخل في قلوب المؤمنين بالغيب من تأثير دعاوى المادية وغيرها، أنهم لا يثبتون إلا المحسوس، لكن لا بد أن نتيقن أن المؤمن بإيمانه يقف على علم ما لا يعلمه غيره، وأن المؤمن، بإيمانه، يتسع أفقه إلى وراء المحسوس ويؤمن أن وراء هذه المادة عوالم، عقولنا تقصر عنها، لكن بسبب الإيمان نثبتها.

والنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، رسم لنا الطريق الصحيح في مثل هذا المقام من إثبات وإيمان، كما في صحيح البخاري أن النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم-، صلى صلاة الفجر ثم أقبل على الناس فقال: "بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهذا، إِنَّما خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ"، فَقالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقالَ: "فإِنِّي أُومِنُ بهذا أَنَا، وأَبُو بَكْرٍ، وعُمَرُ" وما هُما ثَمَّ. "وبيْنَما رَجُلٌ في غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ، فَذَهَبَ منها بشَاةٍ، فَطَلَبَ حتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا منه، فَقالَ له الذِّئْبُ هذا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فمَن لَهَا يَومَ السَّبُعِ، يَومَ لا رَاعِيَ

لَهَا غيرِي؟!" فَقالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قالَ: "فإنِّي أُومِنُ بهذا أنَا، وأَبُو بَكْرٍ، وعُمَرُ".

فالنص واضح وصريح في نطق البقرة ونطق الذئب بكلام معقول وهو من خصائص العقلاء وهذا على غير العادة وقد تعجب الناس وسبحوا الله، لكن الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، يدفع هذا التعجب بإعلان إيمانه وتسليمه ويضم معه أبا بكر وعمر، وفي الرواية "وما هُما ثَمَّ" يعني وإن كانوا غائبين عن المجلس؛ لعلمه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أنهما لا ينكران ما ثبت لمجرد استبعاده العقلي؛ لا، العقل متأخر، الخبر هو الذي يُسلّم له.

من أجل ذلك بصورة قطعية في أي موطن نسمع أن الله أخبرنا عن تسبيح السماوات والأرض والرعد والجبال والشجر والحجر مباشرة نؤمن بتسبيح كل ما في السماوات والأرض، وإن كان مستغربًا عقليًا لكن الله أخبر به، وما دام الله أخبر به إذًا نحن نؤمن به ونعتبره شيء من الغيب، ونصدقه ونثبته بدون أن نبحث عن الكيفيات، الله خالق الكائنات؛ أعلم بحالها وبما خلقها عليه.

أطلنا في الكلام عن التسبيح، وهو أول كلمة في السورة، لكن لكون هذا الموضوع دخل فيه آراء وأقوال وربما دخل

الناس في شيء من الإنكار اعتمادًا على عقولهم، فنحن مع رسولنا -صلَّى الله عليه وسلَّم-، ومع أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- في إيماننا بكل ما أخبر به رب العالمين، وأخبر به رسوله الكريم، أدركته عقولنا أو لم تدركه. ما دام أن الله أخبر، وما دام أنه ورد في السنة الصحيحة، فنحن مسلِّمون ومتيقنون ونعرف أن هذا ينفعنا عند رب العالمين، ونعرف أنه حين تثقل الموازين بالأعمال يكون هذا الإيمان من أعظم ما يحصل الإنسان أجره.

نكمل غدًا، دراسة هذه السورة الكريمة، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يكرمنا بمنّه وكرمه بأن يجعل القرآن ربيعًا لقلوبنا ونورًا لصدرونا وجلاء لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.